الوسادة

أ. د. طاهر بن طاهر
جامعة مصراتة

منفرداً أقرفص على حافة السبيل، أرقب الموت القادم من كل صوب واتجاه، حمم الموت ترشق هداياها في مشهد لا ينتهي إلا ليبدأ، أصوات غليظة، ذكّرته بالأيام المرعدة المزبدة لليالي الشتاء الطويلة الباردة، تقترب جوقة المرسلات تحدث صفيراً يتلوه زئير، تتهيأ النفس والفكر، لاستقبال آت، تسافر الأذن مع فيزياء الصوت، يحاول تطبيق ما درسه في علوم الفيزياء، يضرب أخماسه في أسداسه، يقارب السرعات ويقيس الزمن، يستغرب المحيطون به، من معرفته وقت الانفجار الرهيب والمفزع، شكّك كثيرون في اتصاله مع الغزاة، تحولت مسألة الحساب والنتيجة، إلى شغل لحظي.

العينان الجاحظتان جحوظ الموت تختبئ خلف الحدث تحاول معاينة الآني والآتي، تتسرّب إلى الذهن وتختلط المسافات وتقترب التداعيات، أمّد ذراعيَ المنهكتين، احاول سبر مسير شظايا الموت الملتهب والمتولد، أتمثل أغنية يصل صداها حواف الطريق وذاكرة تشيّد وطناً وترسم آخر لم يعد يتبيّنه، صار الوطن كلمات متقاطعة متباعدة متنافرة.

اليدان المسافرتان في رحلة أبدية، سبقتاني إلى عالم الغيب، قبل أن أتمكن من إنجاز ما وطنت النفس وتخيلته، كيف لي أن أداعب خصلات شعرها الكستنائي والمفرط في جموحه، هل أستطيع أن أتحسس جسدها الغضّ والطريّ بأناملي المسافرة بعيداً، لا زال ملمس القلم والدواة عند قدمي الفقيه يحسّسني أنها تكون جزءاً من كياني لم يستطع البتر أن يمحوه من المنظومة الحسّية، تتحسّس عن بعد

وتعرف الخشن والرطب، السواعد المشوية وأشلائي الممزقة شكّلت محيطاً لافّاً جعل مني أكثر عدوانية وسلّط على نفسي كآبة مقيتة، إلاّ أنني أوقد كل يوم شموع الرجاء وأدفئ ذاتي على مواقد الأمل، التي تقترب مني بلهيبها الشديد والقاسي تخرج ألسنتها المرعبة، شواظاً من لهب، أحسّ بها تقترب من كياني، تلامس شفتيّ المتعبتين ولساني الذلق، أشعر بها كمّامات تسد منافذ الريح وتمنعني الكلام.

رأيت ذلك اليوم وبأمّ عيني ليست حكاية تحكى أو مقولات تقال، صقراً هائلاً وحيداً مثلي يحوم حول المدينة، ويلف ليحط بعيداً في بيته المهجور في قصور الحساسين، منتوف الريش كانت الجموع الغاضبة تبحث عنه في كل مكان، على أغصان الأشجار، يقلّبون الحجارة وفي أيديهم المعاول، بين الآجام والأكمات، بحثاً مضنياً، حتى كدت أن أدلّهم على مكانه، تراجعت آخر الأمر، تعاطفاً مع الحالة المزرية التي وصل إليها.

إذن هذه الجماعات والزرافات من خلق الله المشارك في بحثه الحثيث والمضني، هم من نتف الريش، وسلق عظام الكائن الخرافي، أرعبهم أنّ الطائر لا يتوقف عن الحركة جمع بقايا ذاته وطار بلا زغب كيوم ولدته أمه البيضة ونقر بمنقاره وحيداً ساعياً في الأرض، يلتقط من خشاشها، لكن سوء الطالع رافق مولده، كأنّ الزغب يتحوّل ريشاً كسا الجسد وغطّاه، في مشهد درامي، اعتقد الجميع أنّ طائرهم الخرافي، يحمل صفات التقديس، ويحتاج التبريك، تفتّق ذهن المجموع على بارقة من فكر، ليبارك الإله هذا الوليد المتعملق لكن خيره العميم وفائدته التامة والمكتملة لن تكون إلاّ إذا قسّم ريشه بين الحضور، هكذا قال أحد الكهول الذي شوى كثيراً من الطيور والصقور، وعرف فائدة الريش والرياش.

تنادت المدينة، ونادى مناديها ليوم النتف العظيم، كان الطائر في سيره اليومي يحلّق بعيداً في آفاق الكون باحثاً عن إلف وإيلاف، ليعود ويحط بين الجموع، أدخل السرادق العظيم، لم يمهلوه طويلاً، كان مهرجاناً مهيباً وجليلاً سمّي يوم النتف

العظيم، توّزع ريشه بين الجموع دون عدل الحاضرين وأصحاب الكلمات واللكمات، تحصّل كل واحد على مبتغاه، بل عمد كثيرون منهم إلى دسّ بعض من ريش، يتفضّلون به على من سيلومنهم لاحقاً ويتوسّل إليهم طالباً بعضاً من ريش البركة المقدّس الذي سيثبت نجاعته وفائدته التي لم يكون يتوقع أن تكون مبهرة حد الجنون.

توّزع الريش وتوالد هبت عواصف ورياح عاتية، افتكّت الريش من كثيرين ليفقدوا قدراتهم العجيبة بمجرد أن تخلو أكفّهم من ملمسها الناعم الذي ينشر الدفء والسكينة، ويشعرهم أنهم امتلكوا خاتم سليمان.

في رحلة الريش المنتوف صارت كل ريشة تحمل خصائص طائري الجريح، بل تفنّنت نساء المدر والوبر في التغّزل به، وعرفت الصبايا قدرته السحرية، والعجيبة، تناكح وتناسل المتناسلون من رحم الريش ومن عبق بخوره الذي غطى البلاد، صارت كل ريشة تمثل مشهداً فريداً ومتنوعاً لميزات الطائر الحبيس، توّزعت وتنوّعت وتوالد ريشاً لطواويس، تحوم في خيلاء بأذيالها الملونة والمزركشة، تسير ببطء تفاخر بريشها وتقارع إناثها، كانت الحمائم والزرازير وطائر الخطاف تكتفي بواقعها، وتسير على إيقاعها، بعضهم أعجبته سيرة الحمام، والزرازير، شكل خليطاً غريباً ومسخاً لطائر لم تعرفه بلاد الله يسر سير الزرازير، ويقلد الحمائم.

حافة الطريق مكّنني من رصد ما آلت إليه صرائر الريش، ومحاولات الطائر تجديد ذاته وعطائه لكن كثرة الناتفين وتكرار العملية المضنية، أسقطت أسطورة التجدّد والتوالد الكوني، تسلّل الطائر المزركش بلون السماء والبحر المخضب بعبيق الصحراء وحيداً بعيداً طريداً ينشد الأمان ويطلب الحماية، جسما منهكاً متعباً يبحث عن يد حانية، ومن يطعمه نسغ الحياة، بعث إليه الحكماء والعقلاء سراً يطلبون وده، ويحاولون عقد الصفقات معه، قرأ شروطهم وأعاد قراءتها عديد

المرات، رأى نفسه طائراً هجيناً وببغاء تردد ما طلبه الحواة والزناة وأصحاب العمائم والقبعات، قدّم له الكثيرون النموذج المرتقب في كتالوجات مرتبة ومنمنمة برسوم خلابة ومناظر جاذبة، رأى نفسه بريش وفير يسكن قفصاً وسط قصر بهيج ومكتمل، وفي أخرى في برج معزول تفوح منه رائحة البخور والسواك، ويبصق عليه رجال غطى الشعر ذقونهم وبدت جدائل شعرهم الجميل والبهي، تماماً كصورة هركل العظيم، قال إنّ هؤلاء سيهدمون المعبد على من فيه، كانت النماذج المقدمة تسحره حيناً وتبعده أخرى، في أحد النماذج المنتقاة رأى نفسه طائراً لم يعرف نفسه، عندما بدت له الريشات التي تعلو رأسه الصغير جدائل تتسكب على مقدمة جبهته تحاول طمس ألق عينيه الحادتين تمنى أنّ يكون هذا النموذج قادراً على إبراز عينيه اللامعتين المميزيتين والحادتين.

ملّ الطائر المسكين النماذج والمقترحات التي تقدّم له سرّاً وفي أماكن بعيداً عن أعين المتطفلين، نسي الجميع وفي خضم رؤاهم أنّ ريش الطائر قد توزّع بين الجميع وعلى الجميع دون عدالة ولا إنصاف وإذا لم تجمع أجزاؤه المبعثرة والمشتتة، فإنّ الطائر المسكين يخاف على نفسه أن يتحوّل مرضه إلى متلازمة وأن يدمن على ما هو عليه.

كانت إقامته العالية عند هضبة المدينة تتيح له فرصة المراقبة والمتابعة وترضي شيئاً من فضوله الذي تربّى عليه كونه يحلّق فوق الجميع ويعلو نفوسهم. راودت الطائر المخنوق عديد الهواجس والمخاوف، لكن لم يعدم أياد تمسح براحتيها المبتورتين أرواح ترفرف في سمائه، تقوّي عزمه وتشد أزره، ابتسامتها الهادئة الوادعة هي من أسكنت الهدوء نفسه وطيّبت خاطره، أصوات الفاقدات ينقلب في أذنيه لحناً جنائزياً له حفيف يبعث في ذاته الفرح ويحيله طائراً يعاود التحليق في مساءات المدينة المثقلة بالوهم والخوف.

عندما مرّ الحواة والسّحرة يطوفون حولي بارتياب رأيت العمائم والثياب المزركشة بعضها بلون الرمل وأخرى بأديم الغابات والسفانا، لم أتعرّف عليهم ولم أميّز سحناتهم، تعرّف بعضهم عليّ من خلال صوتي الذي يلثغ بالراء، الذي صار علامة مائزة، كنت متخفياً حتى لا أتهم بإخفاء جثة المنتوف، أو محاولة تضليل أصحاب الريش المغصوب.

أحد السحرة يترجّل من كفنه العالي والفاره لينحني على جسمي المتآكل كأنّ وجهه الصدئ حد التقزز، قد علته ندب لطعنات لم تكن نافدة، وحفر لمحاولات تزيينية تلائم موضات التغيير وتناسب رؤى المحيط، كان سمت وجهي وتضاريسه العامة لم تستطع مشارط الحكماء ولا مجارف أو معاول القائمين تغييرها، عينا الساحر الساحرتين وخدّه المتورد تشعان وتحجبان نور الشمس حيث أحال جسده الخرافي بيني وبين شعاعها، كائنه المرافق والخرافي يربض على إسفلت الطريق ويقطع الطريق على السابلة، كان صوت زمجرتها يصل أذني ويثير فيها خوفاً دفيناً، ذكّره بسياط يعرف وقعها على الجسد، ويذكر تقرحاتها المرعبة، حذاؤه الغليظ كان أكبر حجماً وأكثر أناقة من أحذية الذاكرة والاستدعاء، كان بامتداد رقبته الطويلة قد وصل منتصف الساق، شعرت حينها أنّ قامتي المتقرفصة لن تبلغ ارتفاع مداسه المتسبط.

لبواه الجاثية على نفسي تصدر حمحمة حميمة تلين حيناً وتعاود الزمجرة، رأى قطرات تنساب من جسدها اللطيف، تتبوّل على مقربة من أنفه المزكم، والذي لم يعد يقوى على تمييز الروائح، كأنّ هدوؤها اللحظي وزمجراتها المباغتة تربك المشهد وتوترّه، الأصوات تخيفني حد الفزع، ويخنقني رذاذ نفسها الكريه.

رمقني المترجّل بنظرة ارتياب وشكّ، نظرة تثير القلق وتعيد إلى ذاكرته مشاهد الرعب والفزع، تسمّرت عيناي وتيّبس جفناي، لتتسع الأحداق من جديد، في نوبات لم أستطع معها تمالك نفسي أو التحكم في أطرافي تردّد في خاطري ذلك الحلم

المفزع والمتكرر حتى صار لازمة، تشبث بكياني حتى أحالها العقل الباطني إلى حقيقة معيشة ومتحققة في عالم الفعل، ليالي وأياماً عند الغسق والسحر وقبيل الفجر كان الطائر المنتوف يحلق في سماء زمردية، لم أتبيّنها ولكنها تحولّت إحساساً امتزج بالتصور والإدراك، يحلّق الكائن الغريب في علّوه الشاهق يتوجه صوب البحر حيناً ثم يناور بحركاته الرشيقة والممتعة نحو السهل الممتد، ليعبر الصحراء فوق كثبان الرمال وبين الوديان والمغاور، جناحاه الهائلان شكلاً سحابة هائلة غطّت عين الشمس، أدخلت الرعب إلى كياني والرعشة إلى جسدي، أبحث عن كوة من خلل الغيم الذي بدأ يمطر مطراً لم يعهده كان سخياً باذخاً رأى مسيل الوديان تجرف الرمم والعظام وبقايا الجلود المنتنة، البحر يتغير لونه عند المصب، ليختلط الوحل بالزرقة.

الطائر المهيب يتابع حركاته الرشيقة ويستعرض فنونه وسط تصفيق وهتاف من جمهور أعياه التفرس، ولوي الأعناق والتطلع إلى لمس كيانه ومعرفة كنهه، أجمع الجميع أنّ طائرهم رشيق في حركاته متعال عن صغائرهم، لم يستسلم المراقبون وأصحاب البغاة من الطيور، تجمع شرار الصبية والمغرر بهم وذكراناً آخرين يحملون نسوراً خرقاء على أكتافهم، رجال قمّامون بشارات ورموز قميئة صدئة، حيلهم الساذجة وأشراكهم البدائية لم يلقِ لها الطائر بالاً، استحوّذت عروضه الرائعة والمتقنة، أو هكذا علقت الصحافة ووصفت شدة تأثيره على جموع المشاهدين والمراقبين، رمى البعض باقات الورد والياسمين بعيداً في الهواء، ملأت عجائز القرية الصحاف بماء الورد والزهر ودسّته عند مراقد الصالحين، علّ طيفاً أو شبهاً لطائرهم يتنزل الأرض ويشرب من مائها الطهور، نثرت الصبايا حفن القمح والشعير على الطرقات، ومع كل حبة ترسل العذارى الأماني تحلم بفرس وفارس، عاش الجميع نشوة التحليق.

تحلّق المريدون وأصحاب الحالات ارتشفوا الورد، نقر الدفوف وتراتيل المحبة الإلهية سبحات الشوق والرؤيا، قذفت ببعضهم هناك عند مصب الوادي العظيم، ارتشفوا من نبعه ومنبعه، هناك في الأفق عندما تلتقي الغيوم والجبال، وتنفلق الأرض خشية بمائها المسكوب من دلاء الغيب، تنسكب وتنهمر السماء بغيثها المدرار، وترتسم أقواس قزح على رذاذ بخارها تتداخل الأقواس تشكل لوحة الوجود، ينفض جمع الدراويش وسط زحام ولهاث تسمع أصوات نفخ في الصور، ويتزلزل الوادي ويهبط البناء الدائر الرامز إلى حركة الكون حيت المبتدأ هو الخبر في حركة لا متناهية، حلّق حينها مولانا جلال الدين في حركته الدائرة، ووسط ذهول الجميع حلّق بعيداً في فضاء الكون يرافق الطائر الحزين، يذرع أرض لغة الضاد يبّشر ويعلن يطارده المراقبون ويلعنونه ويسبونه، تبدد الطائر نتفاً من نار تصب سهامها عبر المدن والقرى، عند مصبّات الزيت ومقالع الغاز، كرة تتدحرج وسط أنابيب الغاز والموت، شهبه تحولت نيازك تهدّد الكون عبر نشرات كاذبة لمحقّقين وباحثين ملئوا الأرض والقنوات يحذّرون من التصادم العظيم والمهلك بين نيازك السماء والأرض التي تنوء بحملها الكاذب المبعثر في أسفار الكهنة والسلاطين، لم يفق من حلمه الطويل والمرعب حتى بلسمه السحري وطائره الخرافي كائناً مطارداً يثير حفيظة الجميع ويمقتونه، ما إنّ يتجلى في طلعاته التي غدت قليلة ومتباعدة، حتى تشحذ المدي والسكاكين، وتجّهز البنادق وكل أدوات الإهلاك والبتر والقطع.

حلمي الغريب صار فزعاً يكبر مع بزوغ كل فجر وغروب واختفاء خيوط الشمس الذهبية الحارقة، ومع تمدّدها تكبر الجموع وتتعدّد وتتنوّع، تعيد ترتيب صفوفها، وتموه أشكال فخاخها، تطور متاريس توقيها، في أول الحلم كان الطائر الغريب وظهوره المفاجئ ودون مقدمات محلّقاً غير آبه بالصائحين والمتربصين، تذكّر كيف كان

تجمعهم على استحياء، البعض خاف وارتعب إلى حد الرهبة، وعد ظهور هذا الطائر علامة نحس وبشير شؤم، ومؤشر نكد، وقال آخرون بعد أن فتحوا كتبهم الصفراء والخضراء وقرؤوا الأكف والمعاصم، وأداروا بيض النعام، وفقسوا بيض السلاحف وعقروا الإبل والأنعام عند أقدام كبيرهم الذي لم يعلمهم شيئاً حتى فنون الشعوذة والسحر، خرج البيض أخضر منتن له رائحة غاز النشادر، عرف العرّافون حقيقة الموقف، لكنهم أقرّوا أنّ لا حيلة لهم ولا قبل لديهم، وعدّوا ظهوره علامة من علامات النفخ في الصور، صدم ظهور الطائر المفاجئ وعلى حين غرة ودون توّقع صدمة للزرازير المتصّقرة التي تحوم في حركة دائمة لا تمل ولا تكل، تخفت في أوكارها المعدة سلفاً والتي تلائم طبيعة تكوينها ومكوّناتها، أغشاها نور الكون وأعمى بصيرتها ضوئه المبهر.

كان لساني حينها يذكر محاسنه ويتغزل بمفاتنه وروعته، تأتي الكلمات هكذا دون وعي أو تخطيط، تمجّد هذا الكائن الغريب الذي يشعر أنه يتخلل خاطري ووجداني، لم التقه يوماً ولم أتعّرف إليه ولم يقدّمه أحد لي كانت صورته مضببة ورسمه باهت عبر صفحات الدرس والمقرر المقزز والممل، كان حدسي يتحوّل يقيناً أنّ هذا الطائر حقيقي من دم ولحم، وأنه غير مزوّر كما النسخ الفارطة والمنفرطة، وأنّ ظله سيغطيّ الأرض ويعمّر البلاد ويعين المساكين من العباد، مع مرور الزمن والوقت كثر جمهور القادم الجديد، بل إنهم تنكّروا للأوائل من مستقبليه ومريديه، ورموا حجارتهم الثقيلة في وجوه بعضهم البعض، واستنسخوا طيوراً تشبه طائرهم المفقود، صنعوا دمى لصقور ونسور وبوم، حلّقت الزرازير، تبيد المحصول وتهلك الزرع وتفقر الضرع.

كانت وجوه السحرة الملعونين هي من رأيته في منامي يطارد الطائر الحزين وعشرات من مستنسخاته الكثر والرديئة وهي تحلق وتعلو في سمائي الحزينة المتعبة والكئيبة لتمطر قيحاً ودماً، تلهب مفاصل ما تبقى من جسدي المقضوم، حبال المتحولين

الطويلة المنتهية بمخاطيف من حديد وفولاذ تطلق في فضاء المدينة، تقترب من جسم طائري الجريح والمسكين، كانت النسخ المستنسخة تطاردني، كلّما تراجعت كانت أصوات زمزمتها تصل مسامعي، تقترب في لهاتها وأنفاسها المتقطعة تخرج زفرات يختلط فيها النباح بالعواء، وتسمع حيناً مواءً نشازاً يحاول محاكاة المشهد، تفرّست أحد الوجوه نعم هو ذات الساحر اللعين الذي عمر ألف سنة أو يزيد، هكذا حكى عليه الجد ونقله الأب من أنّه كان يصفع الناس على وجوههم تذكّر ابن عمه خليفة والضربة على مؤخرة الرأس وكيف حوّلته مجنوناً يذرع الكون في بحث لا متناهٍ عن وطن أعان الساحر غاصبيه، وهو اليوم يعيد ذاته تارة أخرى، تنقلت عبر مساحة دماغي في وطن يركله الجميع، أحسست أن رؤيتي ورؤياي قد تضببت واختلطت ألوانها وتداخلت أبعادها وتشابكت ألوانها، لم تعد الفواصل ولا الأنظمة الذاتية أو الأخرى بقادرة على فك طلاسم الوجود من حولي، عللّت ذلك برهقي الشديد وتعب مقلتاي من السفر الطويل، وطول مكوثي على حافّة الطريق، أراقب المارة ويراقبونني في فعل متعمد غالباً، وغير مبيت أخرى، أرصد المشهد الغريب، بعد أن صارت كل ريشة من ريش طائري الربيعي أداة سحرية يملكها الجميع، يخرجونها متى شاؤوا، بعد أن امتلكت قوة سحرية أكسبها لها ذلك الطائر اللعين، وتحوّلت قواه مجتمعة في كل ريشة وزغبة من زغبه، بل حتى في مستنسخاته الرديئة، صارت القدرة الكامنة تتحول إلى دنانير تملأ الجيوب، وحسابات مرقونة، وعمائر في مشارق الأرض ومغاربها، صار الريش عفريتاً بمجرد أن تفرك ريشك المزيف والحقيقي إلى خادم مطيع ملبيّاً دون شبيّك ولا لبيّك ولا علاء الدين وفانوسه السحري، ولم يعد بحاجة لسندباد يسافر ويغامر، تاجر المتاجرون بالدم والنار والبارود، وأجرم المجرمون وهم يحملون ريشة الطائر تزيّن صدورهم، وتتكئ في

خيلاء على مقدمات قبعاتهم، يتراجع الجميع ويوّلون الأدبار خوفاً ورهباً إذا أخرج أحدهم ريشة من ريش الطائر اللعين، فهي تمثل صورة المجنّح العظيم، لم يعد أحد يفرّق بين ريش الطائر والطائر الكيان والقيمة.

استلقى الهم بكلكله واستولى على ذاتي عندما أحسست أنّ صوت محرك اللبوة قد علا صوتي المبحوح، الذي طالما تغنّى وتغزّل بالطائر وقدرته العجيبة التي ستفجر الأرض أنهاراً وتخلق جنات من نعيم أرضي، وفيض الخير القادم، كانت عينا الساحر اللعين والجريئة تقدح شرراً وحذاؤه الغليظة يضغط خاصرتي، كان الألم يتوّزع على أجزاء جسدي، لتخرج حبات العرق وتندلق على جبيني ليبللني غمر من ألم ونجوى.

اليدان القاسيتان تحيطان عنقي وتحوطانه، شيء قاسٍ وخشن يلتف حول حنجرتي، كنت أرى كل شيء دون أن أتبينه، أحس به ولا أتألم منه، أدخل الشبح سبابته الطويلة والحادة داخل تجويف فمي، شعرت به كمشرط طبيب مدرّب، أو نصل خنجر صوفي يتسّلل عبر الحشا ويقطع الأوردة، وبحركة رشيقة أخرج حنجرتي على الملأ، وتمتم ها قد انتهى كل شيء. شكره الحاضرون وأثنوا على براعته وخفته. تقدم المهنئون في صفوف طويلة يباركون ويرفعون شارات النصر والفوز العظيم.

فقدت القدرة على الصراخ أو حتى البكاء ما بالك بالعويل، عندها رأيت طائري الفقيد كأول يوم بدا فيه أكثر قوة وأشد ألقاً محلّقاً بألوانه الزاهية البهية، كانت صفوف المصوتين تتحوّل نغماً ينسكب عبر نبضات وخفقات جوانحي، سمعته يهمس أنّ ميلاداً جديداً لآلاف السحرة والمشعوذين وشيوخ القبائل والمهرجين يتوسدون اليوم ريشه الناعم الجميل، ويحلمون بصبايا داعش الأبكار من المسلمين والكفار.